المبحث الثاني

العمارة العباسية في مصر

لعل خير وسيلة لاستعراض تاريخ العمارة العربية في مصر ان نقسمه الى مراحل مختلفة تشمل العصور التاريخية التي تكون الحضارة العربية في هذا الجزء من وطننا العربي •

فالمرحلة الاولى تبدأ بفتح مصر سنة ٢٠هـ (٦٤١م) وتستمر الى العصر الطولوني ، وفي بداية هذه المرحلة شيد العرب مدينة الفسطاط التي تعتبر اولى العواصم التي انشأها العرب في هذه البقعة من القطر المصري •

وكان انشاء هذه العاصمة او امر عني به عمرو بن العاص غداة فوزه فتح البلاد المصرية بأمر من الخليفة عمر بن الخطاب (رض) ، كما تلقى عمرو في الوقت نفسه امراً اخر من الخليفة عمر بن الخطاب فبنى اول مسجد جامع بمصر وهو جامع « عمرو بن العاص » •

وانتهى عصر الراشدين ، ثم عصر الامويين ، وجاء عصر العباسيين وفيه انشأ العرب في شمال الفسطاط عاصمة جديدة وهي العسكر التي ضاعت معالمها•

والاثر الباقي من هذا العصر العباسي هو مقياس النيل (شكل ٤٥) بجزيرة الروضة الذي انشأ في عهد الخليفة العباسي المتوكل على الله سنة ٢٤٧هـ (٨٦١م) ويتكون هذا المقياس من عمود رخامي مدرج يتوسط بئرا مربعة من الحجر ويتصل المقياس بالنيل بواسطة ثلاث فتحات تجري بالقرب من القاع •

Scanned by CamScanner

والعمود المدرج عليه كتابة بالخط الكوفي واعلاه مدون عليه رقم تسع عشرة ذراعا وقد قام ابن طولون باصلاح هذا المقياس في عهده وازال بعض الكتابات ووضع اسمه عليها ولكنه ترك عليها التأريخ الاصلي .(١)

اما المرحلة الثانية فتشمل العصر الطولوني وهي المرحلة التي استقلت فيها مصر عن الخلافة العباسية وقد حكم فيها الطولونيون مصر بين سنتي ٢٥٤ - ٢٩٢هـ (٨٦٨-٩١٠م) وتعتبر هذة المرحلة صدى للطفرة المعمارية والفنية التي حدثت في العراق عندما أسست مدينة سامراء ، ذلك انه وضح تأثير الطفره على العمارة والفنون في مصر في جامع ابن طولون الذي بناه في وسط مدينة القطائع ، وهي العاصمة الجديدة التي شيدها الى الشمال من مدينة العسكر سنة ٢٦٣هـ (٨٧٦م)(٢) .

يتكون جامع ابن طولون من صحن مربع مكشوف تتوسطه نافورة اعتبرت في الاصل ليشرب منها الناس ، وتعلو ذلك المربع قبة محمولة على مسفوف من المقرنصات وتحيط بالصحن المذكور من جوانبه الأربعة ، اربعة اروقة اكبرها رواق القبلة الذي يتكون من خمس اساكيب موازية لجدار القبلة ، عرض كل منها خمسة امتار فيما عدا اسكوب المحراب فعرضه ستة امتار وكل من الاروقة الثلاثة الباقية يتكون من بلاطتين فقط ، ويتوسط جدار القبلة محراب وهو على شكل تجويف نصف دائري ويغشي جدرانه فسيفساء زخارفية ملونة .

تمتاز عمارة المسجد الطولوني ببنائه جميعا من الحجر المكسو بالجص جدرانه ودعاماته وعقوده ، كما تمتاز باستخدام الدعامات في حمل العقود ورفع السقف بدلا من العقد .

---

(١) كمال الدين سامح . العمارة الاسلامية في مصر ص٣٤ .

(٢) فريد شافعي . العمارة العربية في مصر الاسلامية ص٣٦٩ .

Scanned by CamScanner

والزخارف الموجودة في جامع ابن طولون وثيقة الصلة بزخارف سامراء، كما يظهر لنا من زخارف الالواح الخشبية لبعض ابواب وافاريز الجامع ، كما تبدو تلك الصلة ايضا في الزخارف الجصية التي نراها واضحة في الاروقة المشرفة على الصحن وفي بطون العقود وحول النوافذ .

ويصل عدد الابواب في هذا الجامع الى (١٩) بابا يضاف الى باب بجدار المنبر يصل بين الجامع وبين دار الامارة .

على ان اهم مايتجلى في جامع ابن طولون تاثير سامراء هو تكوين المئذنة او الملوية التي شيدت في الزيادة الشمالية وبخاصة وجود السلم الصاعد الى اعلى وهو يلتف حول بدن المئذنة من الخارج وليس من الداخل كما هو الحال في جميع مآذن العالم العربي الاسلامي ، عدا مئذنتي الجامع الكبير في سامراء وجامع ابي دلف في شمال تلك المدينة[1] . ان مئذنة جامع ابن طولون تختلف عنهما في ان ثلثي ارتفاع بدنها متعامد الاضلاع يعلوه جزء اسطواني لازال يلتف السلم حوله من الخارج بينما يرتفع البدن في كل من ملويتي سامراء وابي دلف مستديرا كله ابتداء من فوق القاعدة وحتى النهاية العليا (شكل ٤٦)

لذلك فان معظم المختصين بالعمارة العربية الاسلامية يذهبون الى ان المهندس الذي شيّد جامع ابن طولون كان من القطر العراقي[2] ولا يستبعد ان يكون قد قدم الى مصر مع احمد بن طولون او ان يكون هذا المهندس قد قدم من العراق بناء على طلب من احمد بن طولون

ومن العمائر المدنية التي وصلت الينا من العصر الطولوني البيت الذي اكتشفته بعثة التنقيبات التابعة لمتحف الفن الاسلامي بالقاهرة، ومن مقارنة هذا

(١) فريد شافعي ، المصدر السابق ص٤١٠ .
(٢) سامح ، المصدر السابق ص٤٤ .

Scanned by CamScanner

البيت من الناحية التخطيطية والزخرفية مع الدور المكتشفة في سامراء يتبين لنا مدى تأثر المهندسين والمعماريين العرب في مصر بالتخطيط المعماري والزخرفي الذي ساد مدينة سامراء اثناء الفترة التي حكم فيها الطولونيون هذه المدينة .(١)

وفي احدى قاعات متحف الفن الاسلامي بالقاهرة نماذج جصية نزعت من جدران البيت المذكور قريبة الشبه من الزخارف الجصية التي عثر عليها في دور مدينة سامراء .

والمرحلة الثالثة من تاريخ مصر الفني يبدأ بقيام الدولة الفاطمية سنة ٣٥٩هـ (٩٦٩م) واستمرت الى سنة ٥٦٧هـ (١١٧١م) اي حوالي قرنين من الزمان وقدقام على ايدي الفاطميين الطراز الفاطمي وازدهر هذا الطراز في مصر والشام ، ويشهد الفن العربي الاسلامي تطورا كبيرا وتقدما ملحوظا وازدهارا واضحا عما كان عليه من قبل بفضل تقدم البلاد تقدما اقتصاديا كبيرا ويتأثر هذا الفن بهذا التقدم وبفضل حرص الفاطميين على تشجيع الفنانين .

وقد تجلت براعة رجال الفن في العصر الفاطمي في صور كثيرة ، وقد ترك الفاطميون وراءهم عمائر عدة تكشف عن مدى مابلغوه من الخبرة الواسعة في البناء والزخرفة .

ويفرض علينا ضيق المجال ان نختار من بين الاثار الفاطمية الكثيرة نماذج منها . فالجامع الازهر (شكل ٤٧) يعتبر نموذجاً من فن بناء المساجد في عصر الفاطميين، بناه القائد جوهر الصقلي باسم الخليفة القاضي المعز لدين الله، وتمت عمارته سنة ٣٦١هـ (٩٧٢م) ، وقد ادخلت عليه عدة زيادات حتى تضاعفت مساحته واصبح اليوم بشكله الحالي معرضا لفن العمارة الاسلامية

(١) محمد عبدالعزيز مرزوق / الحياة الفنية في مصر الاسلامية ص ٥٦٩ .

Scanned by CamScanner

الدينية في مصر منذ العصر الفاطمي حتى عصر الاسرة العلوية • وعلى الرغم من التعديلات والاضافات التي ادخلت على بناء الازهر فانه لايزال يحتفظ باجزاء هامة من عناصره المعمارية الاصلية •

كان الازهر عند تمام انشائه يمثل مساحة مستطيلة • كان بيت الصلاة يشمل خمسة اروقة ، وكان يعلو رواق المحراب ثلاث قباب ، احداها في المنطقة التي تعلو المحراب الاصلي وواحدة في كل من ركني رواق القبلة •

وتنقسم الاروقة الى تسع عشرة بلاطة ، اوسعها بلاطة المحراب وكانت الاروقة المطلة على الصحن قائمة على اكتاف مبنية • بينما تقوم اروقة ايوان القبلة على اعمدة رخامية من طرز مختلفة •

وفتحت في اعلى الجدران شبابيك جصية مفرغة باشكال هندسية احيطت بأفريز مكتوب بالخط الكوفي المزهر بآيات من القرآن الكريم •

وكان صحن المسجد مستطيلا ، وكانت تحف به مجنبتان واحدة في شرقه واخرى في غربه •

ومن الزخارف المتبقية من البناء الاصلي اللوحات التي تحف بالنوافذ ، اذ كانت النوافذ محشوة بستائر جصية مخرمة قوام بعضها اشكال هندسية وقوام البعض الاخر زخارف نباتية •

وليس بالجامع مئذنة ترجع الى العصر الفاطمي والمآذن الحالية بنيت للسلطان قايتباي والسلطان الغوري والامير عبدالرحمن كتخذ أحد امراء القرن الثامن عشر •(١)

واذا كان الجامع الازهر لم يبرز لنا الخصائص العامة للعمارة الفاطمية فان هناك عمائر اخرى شيدها الفاطميون تحقق لنا هذا الهدف من اهمها جامع الحاكم بامر الله ، وكذلك جامع الجيوشي والجامع الاقمر • اما جامع الحاكم فقد بدىء في بنائه في عهد العزيز بالله سنة ٣٨٠هـ (٩٩٠م)

(١) سامح ، المصدر السابق ص٥١ •

Scanned by CamScanner

تم في عهد ابنه الحاكم بامر الله ومن الملاحظ ان الجامع المذكور يحتفظ بالعناصر الرئيسية للمساجد الفاطمية وهي الواجهة الفخمة والمدخل البارز ومجاز القبلة والقباب الثلاث .

ويتوسط الجامع صحن مكشوف تحيط به اربعة اروقة ترتكز عقودها على دعائم من الاجر .اما الواجهة فمنقطعة النظير فيمساجد مصر السابقة ويقوم في زاويتها برجان عظيمان يخرج من كل منهما مئذنة عالية تعد اقدم المآذن المؤرخة في مصر .[1] .

اما المدخل الرئيس للجامع فيقع في منتصف الواجهة وهو بارز عن الواجهة ، وهو اول مثال من هذا النوع للمداخل ، ومجاز القبلة من الصحن الى المحراب مباشرة ويمتاز بعلو سقفه عن سقف المسجد .

اما القباب فنشاهدها برواق القبلة واحدة كبيرة امام المحراب واثنتان صغيرتان في طرفي جدار القبلة الاولى على اليمين والثانية على اليسار .

اما الجامع الاقمر فيعتبر من اجمل المساجد الفاطمية ويمتاز بجمال زخرفة واجهته التي تعتبر اول واجهة مزخرفة في المساجد المصرية ، وهي مبنية من الحجر ، وتعد واجهة هذا الجامع قطعة فنية من الفن ، تنطق عن عبقرية الفنان العربي .

واهم ما في هذه الواجهة استعمال المقرنص كعنصر من عناصر الزخرفة الاسلامية ، والى جانب المساجد التي تركها الفاطميون ، فقد وصل الينا منهم ايضا مايعرف بالمشهد ، والمشهد يقصد منه البناء المقام فوق القبر، ويعتبر جامع الجيوشي الذي شيد سنة ٤٩٨هـ (١٠١٨م) اول بناء اشتمل على مسجد وضريح ، ويقع على حافة جبل المقطم والمدخل يعلوه مئذنة فريدة في شكلها ، فهي تتكون

(١) مرزوق : الحياة الفنية ص٥٧٢ .

Scanned by CamScanner

من برج منتهي من اعلاه بشرفة حافتها مكونة من المقرنص ثم يعلو البرج منطقة اصغر حجما من السفلى ثم توجد بعد ذلك منطقة مثمنة بكل ضلع فتحة وتنتهي المئذنة من اعلاها بقبة صغيرة .(١)

ومحراب هذا المشهد يعد آية من ايات الفن العربي ، تجلت فيه عبقرية الفنان في اروع صورها وابدع مظاهرها .

وبقيت مصر خاضعة للفاطميين الى سنة ٥٦٧هـ (١١٧١م) عندما استطاع صلاح الدين الايوبي ان يخلع الخليفة الفاطمي ويستقل بمصر ويؤسس الدولة الايوبية التي استمرت الى سنة ٦٤٨هـ (١٢٥٠م) وبذلك تبدأ صفحة جديدة من صفحات تاريخ الفن الاسلامي في مصر وكان عصر الايوبيين عصر فتوح وجهاد ضد الصليبيين الذين هددوا الشرق الاسلامي في ذلك الحين ، ومع ذلك فقد استطاع ان يسّطر لنفسه في سجل الفن العربي الاسلامي ، بل وفي تاريخ الامة العربية صفحات خالدات تشع من بين سطورها آيات العظمة نرى ثروة فيما شيدوه من مبان حربية والسور الطويل الذي كان يضم بين جدرانه العواصم الاربع وهي الفسطاط والعسكر والقطائع والقاهرة .

اما قلعة القاهرة او قلعة الجبل فهي من الابنية التي بناها صلاح الدين الايوبي سنة ٥٧٩هـ (١١٨٣م) وتعتبر من اهم المعائر التي تشهد على مدى تقدم العرب في فن البناء الحربي في ذلك العصر . ولايزال برج الظفر يحدثنا هو الاخر بجدرانه السميكة وتخطيطه الرائع وزخارفه المحفورة في الحجر عن مدى تقدمنا في فن البناء والتحصين .

ومن مميزات الطراز الايوبي في العمارة تطور المئذنة، التي اتخذت شكلا خاصا يعرف بالمبخرة وكذا القبة اذ تعددت حطات المقرنص كما ظهر بناء الخوانق لاقامة الصوفية(٢) .

---

(١) سامح ، المصدر السابق ص٦٣ .
(٢) المصدر السابق ص٧٢ .

Scanned by CamScanner

والى جانب بناء الاسوار والقـلاع ازدهر في عصر الايوبيين عنصرا اخر من عناصر العمارة الاسلامية وهو تشييد المدارس وقد كان لصلاح الدين الايوبي الفضل الاكبر في انشاء هذه المدارس وانتشارها في انحـاء مصر ، والمدرسة الناصرية اولى هذه المدارس التي انشأها ، كما انشأ المدرسة الصلاحية في سنة ٥٧٢هـ (١١٧٧م) ومن المدارس الاخرى التي تعود الى العصر الايوبي المدرسـة الصالحية التي انشأها الملك الصالح نجم الدين ايوب سنة ٥٩٤هـ (١١٩٩م) .

ومن العمائر التي ترجع الى العصر الايوبي قبة الامام الشافعي التي انشأها سنة (٦٠٨هـ) الملك الكامل محمد وتعد هذه القبة مـن اجمل القبـاب في مصر الاسلامية حيث زينت بالنقوش من الداخل والخارج .

ومن الابنية التي تعود الى هذا العصر ايضا القبة التي شيدتها شجرة الدر فوق قبر زوجها الملك الصالح نجم الدين ايوب سنة ٦٤٦هـ (١٢٤٩م) .

اما بقية مراحل الفن الاسلامي في مصر فسوف نعرض لها في دراسات قادمـــة .

Scanned by CamScanner